﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: 69 - 72]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكرِ أدلّـة التّوحيدِ إلى ذكرِ العجب مـمّـن يُـجـادل فيها

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة الأدلّةَ على وحدانيَّته سبحانه - ومنها ذِكرُ أطوار خلق الإنسان، وأنَّه سبحانه المتفرّد بالقدرة على الإحياء والإماتة - ناسَبَ ذكرُ سبب ذلك البيان، وهو وجودُ المجادلين في آيات الله تعالى، وأنّ سببَ المجادلةِ وعدمِ الإذعان هو التّكذيب بالقرآن والرِّسالة، وأنَّ الرَّدَّ على المكذِّبين يكون ببيان الأدلّة الواضحة، والحجج الظّاهرة، ثمَّ بالتَّرهيب والوعيد الشّديد إنْ لم يُذعنوا للحقِّ، ويخضعوا لأمرِ الله ﷻ.

لذلك أعقَبَ الآياتِ السّابقةَ هنا بتعجيبِ المخاطَب مِن حال هؤلاء الكافرين المجادِلين، المنصرِفين عن جادّة الحقّ إلى الضّلال، وزجَرَهم عنه وهدّدهم بالوعيد الشّديد بِغَلِّهم بالأغلال، وسحبِهم بالسَّلاسلِ في الحميم، وسَجْرِهم بالنّيران.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ الجدالُ: المعارضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصله من جَدَل الحَبْل: أحكَمَ فَتْله؛ كأنَّ كلًّا من المتجادلَين يفتِل الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصلُ في الجَدَلِ: الصّراعُ وإسقاط الإنسان صاحبَه على الجَدالة؛ أي: الأرضِ الصُّلبة، والأجدلُ: الصّقر المحكم البِنْية، والمِجْدَل: القصر المحكَمُ البناءِ[1]، ومعنى

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الجدال) مختصرًا.

﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يعارضونه على سبيل المنازَعة والمغالبة.

2) ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ (صرف) معظمُ بابِه يدلّ على رَجْع الشّيء. من ذلك: صرفتُ القومَ صَرفًا وانصرفوا، إذا رَجَعتَهم فرجعوا، والصَّرف في القرآن: التّوبة؛ لأنّه يرجعُ به عن رتبة المذنبين، ومعنى الصّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيءٍ، كأنَّ الدّينار صُرِف إلى الدّراهم؛ أي: رجع إليها، إذا أخذت بدله. قال أبو عبيد: صرف الكلام: تزيينه والزّيادة فيه، وإنما سُمّي بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه. ويقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صُروف، وسُمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم[1]، ومعنى ﴿يُصۡرَفُونَ﴾: يرجعون ويتحوَّلون عن الحقّ إلى الباطل.

3) ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: الغَلَلُ أصله: تدرُّع الشّيء وتوسُّطه، وانْغَلَّ فيما بين الشّجر: دخل فيه، فالغُلُّ مختصّ بما يُقيَّدُ به فيجعلُ الأعضاءَ وسطه، وجمعه أغْلالٌ، وغُلَّ فلانٌ: قيّد به. قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ [الحاقّة: 30]، وقال: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: 157]، وقولُه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ [يس: 8] معناه: منَعَهم فعلَ الخير، وذلك نحوُ وصْفِهم بالطّبع والختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم[2]، ومعنى ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: القيود والأصفاد الّتي تُطوِّقُهم، وتقهرهم، وتُذلُّهم في الآخرة.

4) ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: سَلَّ الشّيءَ من الشّيء: نزَعَهُ، كسلِّ السّيفِ من الغِمد، وسَلِّ الشّيء من البيت على سبيل السّرِقة، وسَلِّ الولد من الأب، ومنه قيل للولد: سَليلٌ. قال تعالى: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النّور: 63]، ومنه السِّلْسِلَةُ، قال تعالى: ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ [الحاقّة: 32]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰسِلَا۠ وَأَغۡلَٰلَا وَسَعِيرٗا ۝٤﴾ [الإنسان: 4]، وقال: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾[3].

و"السِّلسِلَةُ: اتِّصال الشّيء بالشيء. والسِّلسلةُ: معروفةٌ، دائرةٌ من حديدٍ ونحوِه من الجواهر، مشتقٌّ من ذلك. وسلاسلُ البرق: ما تسلسَلَ منه في السّحاب، واحدته سِلسِلةٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (غلل).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سل).

وكذلك سلاسلُ الرّمل، واحدتُها سِلسِلةٌ وسِلسِلٌ[1]. ومعنى ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: حِلَقُ الحديد المتَّصلِ بعضُها ببعض، تطوَّق أعناقَ الجرمين في الآخرة؛ إهانةً لهم وتعذيبًا.

5) ﴿يُسْحَبُونَ﴾: أصلُ السَّحْبِ: الجَرُّ، كسحب الذَّيْل والإنسانِ على الوجه، ومنه: السَّحابُ، إمّا لجرِّ الرّيح له، أو لجرِّه الماءَ، أو لانجرارِهِ في مَرِّهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: 48]، وقال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ﴾، وقيل: فلان يَتَسَحَّبُ على فلان، كقولك: ينجرُّ، وذلك إذا تجرَّأ عليه، والسَّحابُ: الغيمُ سواءٌ كان فيها ماءٌ أو لم يكن، ولهذا يقال: سحابٌ جَهامٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النّور: 43]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ [الأعراف: 57]، وقال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ [الرّعد: 12][2]، ومعنى ﴿يُسْحَبُونَ﴾: يُجَرّون مُنكَفِئينَ على وجوههم؛ إمعانًا في الإهانة والتّعذيب.

6) ﴿يُسْجَرُونَ﴾: السَّجْر: تهييجُ النّار. وقد سَجَرْتُ التَّنّورَ، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطّور: 6]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التّكوير: 6]؛ أي: أُضرِمتْ نارًا، وقيل غيضت مياهُها، وإنَّما يكونُ كذلك لتسجيرِ النّار فيها. وقولُهُ: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ هو نحوُ قولِه سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وسَجَرَتِ النّاقةُ سَجْرًا وسجَّرَتْ تسجيرًا: مَدَّتْ حنينَها في أثَر ولدها، وملأت به فاها[3]، ومعنى ﴿يُسْجَرُونَ﴾: تُلهَبُ فيهم النّار، وتُضرَم، وتُهيَّج؛ إمعانًا في معاقبتهم جزاءً وفاقًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطِبُ الآياتُ الكريمة رسولَ الله ﷺ قائلةً له: انظر إلى حال هؤلاء الكافرين، الَّذين يناوِئونك ويخاصمونك في جميع آيات الله تعالى البيِّنات؛ يحاولون بذلك إعاقةَ نشر الدّين وتبليغِه إلى العالمين؛ فهو ممّا يُثير عَجَب العقلاء؛ فتأمَّل كيف يُخدَعون عن الحقِّ، وكيف يُبْعدون عنه[4] ويذهبون في طريق الضّلال، مُتَعامين عمّا في تلك الآيات من الحُجَج والبراهينِ الدّالّة على صدق نسبته إلى الله تعالى، و"كيفَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سلسل).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سحب).
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في السجر): 3/ 191.
(4) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 317.

يُصرفونَ عنها معَ تعاضدِ الدَّواعي إلى الإقبالِ عليها وانتفاءِ الصّوارفِ عنها بالكُلّيَّةِ"[1].

إطلاعُ العبادِ على مصيرِ الكافرينَ في النّارِ من تمامِ الرّحمة وعظيمِ المنّة

هؤلاء كذبوا بالقرآن الكريم وبالكتب السّماويَّة كلِّها تبعًا لذلك، وكذبوا بما أوحينا إليك من التّوحيد وتفاصيلِ الدّين؛ فاستحقوا الوعيد، الَّذي سيرونه عاجلًا في الدّنيا وآجلًا في الآخرة، يومَ تُغَلُّ أعناقهم بأغلال الحديد، ويُجَرّون بالسلاسلِ في الماء المتناهي حَرُّه، ثمَّ يكونون وقودًا للنّار الَّتي تُشعَل فيهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

الاستئنافُ بغرضِ إنشاءِ التّعجُّب من صنيعِ المكذِّبين

فُصِلَتْ جملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنفةٌ، أنشأتْ غرضَ التّعجيب من حال انصرافهم عن التّصديق بالقرآنِ بعد تلك الدّلائل البيِّنة[2]، ولِما بينهما من اختلاف الأسلوب، فالأولى خبريَّةٌ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، وهذه إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

معنى الهمزةِ في جملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وغرضُها:

الجدالُ في الحقِّ الجليِّ يُثيرُ العَجَبَ، ويوجِبُ الذَّمَّ والعقوبة

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استفهاميَّةٌ، جاءت لغرض التّعجيب مِن حال هؤلاء المجادلين في آيات الله تعالى وصَرْفِهم إيّاها عن وجهها، ومحاولةِ طمس أنوارها، واللهُ سبحانه متمٌّ نورِه ولو كره الكافرون، كذلك يتضمَّن الاستفهامُ هنا معنى التّقرير على الإثبات[3]، والتَّعجيبُ "ذمٌّ لهم على أنْ جادلوا في آيات الله تعالى وعلى دَفْعِها والتَّكذيبِ بها"[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 200.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.

نوعُ الرُّؤية ودلالتُها:

شِدَّةُ جُرم المجادلين في الحقِّ تكادُ تتجسَّدُ فتُرَى بالعين

الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ هي الرّؤية العِلميَّة، وفيها أنَّ العِلمَ بهذا الجدالِ - إبطالًا للحقِّ بعدَ تبيُّنِه، وصَرْفًا له عن وجهِه - موجِبٌ للعَجَب، وفي ذلك إيحاءٌ بأنَّ شدَّةَ جُرمهم في كيدهم الحقَّ وجدالِهم فيه كادت أن تتجسّد فتُرَى بالعين الباصرة، والمعنى: "ألم تعلم سَفَهَ الَّذين يجادلون في آيات الله، أو جَهْلَ الَّذين يجادلون في آيات الله؟"[1].

نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

مَنْ رأى أحوالَ المجادلين عَلِمَ ثباتَهم على الباطلِ وبقاءَهم عليه

جاء التّعبير بصيغة المضارع لفعل الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لتصويرِ اجتهاد المشركين في المجادلة على الدّوام في مدافعة الحقِّ، وعدم توانيهم عن تجديد الكيد له، ومحاولة التِماسِ العيوب له، فمن رأى تلك الأحوالَ مرّةً تلوَ الأخرى علم وثبت له أنَّهم لا ينصرفون عمّا هم عليه من الباطل.

تعيينُ مرجع ضمير الخطاب:

في الخطابِ القرآنيّ خِصّيصةُ التَّجدُّدِ وإمكان الذّيوع

المخاطبُ بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يرجعُ إلى رسول الله ﷺ؛ إذ هو المتلقّي لهذا الوحي الشّريف، ثمَّ يُخاطَبُ بهذا الضَّمير كلُّ من وراءَهُ ممَّن يتلقّاه من أُمَّته ومِن غير أُمَّته إلى يوم الدّين. وهذا الاحتمالُ للعموم يَمنح حياةً متجدِّدة لفهمِ واقع المكذّبين في كلّ حينٍ وفي كلّ جيل، وإلى ذلك فشيوعُ هذا الخطابِ يدعمُ التّعجيب، ويصبُّ على هؤلاء المجادلين مزيدًا من الإنكار والزَّجر.

نكتةُ استعمالِ الحرفِ ﴿إِلَى﴾:

لمّا كانتْ رؤية ذواتِ المجادِلين في آيات الله تعالى ليست مقصودةً، وحُثَّ المخاطَبُ على النّظر إليهم بـ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ كان في تعدية فِعل الرّؤية العِلميَّة بحرف ﴿إِلَى﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 50.

تضمينُهُ معنى الفعل (تلتفتْ)، والمعنى: ألم تلتفتْ إلى شناعة جُرم المجادلين في آيات الله تعالى بالباطل؟ مع بيانِ بُعْدِهم بأداة النِّهاية ﴿إِلَى﴾، فقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بالباطل[1].

تضمينُ معنى الالتفاتِ؛ زيادةً في التّنبيهِ على موضع التّعجُّب

علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول الجَمْعيِّ:

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يهيِّئُ لذِكر ما لا يُتيحه ذكرُهم بالاسم الصّريح، وذلك لبيانِ أنّهم قومٌ مخصوصون بهذه الصّفاتِ وهذا العنادِ على الكفر، فكانت المجادلةُ في دفع آيات الله سبحانه من رؤساء الكفرة وأكابرهم، كانوا يُمَوِّهون بمجادلتهم في دفع آيات الله تعالى والطَّعنِ فيها على أتباعهم وسَفَلتهم؛ لتبقى لهم الرّياسة والمأكلة الَّتي كانت لهم، لم يزل الأكابرُ منهم والرُّؤساء يطعنون في آيات الله تعالى ويدفعونها، يريدون التّمويهَ والتَّلبيس على أتباعهم وسفلتهم؛ ليبقى لهم العِزُّ والشَّرفُ الَّذي كان لهم، ويُبطلوا به الحقّ ويطفئوا نوره[2]، مع الاستشهاد عليهم بما في حيّز الصّلة من ذمِّهم على المجادلة بالباطل بعد بيان الحقّ، وفي التّعبير عنهم بالجماعةِ تنبيهٌ على أنَّ الكفّار يتآزَرون على تحقيق أغراضِهمُ الخبيثة.

تَهيئةُ العبارةِ لـذِكْـرِ حيثيّات الحُكم

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الجدال لِما فيه من الدّلالةِ على شدَّةِ الإحكام في العنادِ على الحجَّة الموهومة الَّتي يحسَبُها المشركون حجّةً، فمادَّةُ المجادلة مأخوذةٌ من جدْلِ الحبل، وجدلُه يحتاجُ إلى إحكام وقوَّةِ فَتْلٍ ليتحمَّلَ الشّدَّ به، فاستُعير الفتلُ هنا لقوَّةِ إحكام ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كلامَهم، وإحكامِهم التّمويهَ على الدّهماء الَّذين ينطلي عليهم الخداعُ بالباطل.

المشركون يَحسَبون جدالَهم حجَّةً وعنادَهم حقًّا

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 42.

دلالةُ صيغةِ المضارع ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

الكافرُ المُجادِلُ عنيدٌ في إيجادِ أسبابِ الجدالِ بالباطلِ في كلِّ حين

تدلُّ صيغة المضارعة في الفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ على تصوير أولئك المجادلين بأنّهم في كلِّ أحوالِهم ومواقفِهم يُجادلون بالباطل، فهم لا يتوقَّفون عن تشويهِ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بجُرأةٍ وسوءِ أدبٍ، ولا يدَّخِرون جهدًا في تحقيق ذلك، ولا يتوقَّفون عن تجديد أساليبِ المكر في الإيقاع بأمثالِهم من الدّهماءِ، ولا يتورَّعون عن الافتراء على الحقّ كلَّما أمكن.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

المُـجـادِلُ في الآياتِ كالسّابحِ المُجادِلِ في وجودِ الماءِ

تعدّى فعل المجادلة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ بحرف الظّرفيَّة ﴿فِى﴾؛ لبيانِ أنَّ المجادلين يعيشون في ظلِّ آيات الله تعالى، ويكتسبون النِّعمَ الوفيرةَ، والخيراتِ الجليلةَ، فهم في الآيات يعيشون، كما أنّهم يسمعون آياتِ الله تعالى الَّتي جَلَّتْ آذانهم وعقولهم، وهم في وسط هذه الآيات - الَّتي لا تخفى على أعمى فضلًا عن بصير، ولا يغفلُ عنها صغيرٌ فضلًا عن كبير - يجادلون ويكذِّبون، ففيه تأكيدٌ على معنى التّعجُّبِ وشديدِ الإنكار، مع ما فيه من تضمين معنى الخوض[1]، فهم بجدالهم في آيات الله تعالى يخوضون في الآيات تكذيبًا وافتراءً.

دلالةُ التَّعبير بلفظةِ الآيات:

الحُجَجُ لوضوحِها والبراهينُ لظهورِها سُمّيَتْ آيات

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ ﴿ءَايَٰتِ﴾ - وهو جمعُ آيةٍ، وهي العَلامةُ والحُجَّة - لبيانِ أنَّ هذه الحججَ البيِّنةَ والبراهينَ الظّاهرة آياتٌ منصوبةٌ لمعرفةِ الحقِّ والوقوفِ على الصّدق، واختير هذا اللَّفظ لمزيد التَّعجُّب على المشركين المجادلين، ولمزيد الإنكار والذّم لجدالهم في الحقّ الظّاهر الواضح، ولتشملَ كلَّ ما يَصدُقُ عليه اسمُ آية.

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1267.

نكتةُ استعمال ﴿ءَايَٰتِ﴾ بصيغة الجمع:

كثرةُ الآيات دليلُ وفْرة الدَّلالات

يُفيد جَمْعُ الآيات كثرتَها وتَنَوُّعَها وغزارةَ العِبَر الَّتي فيها لمن أراد الاعتبار، وأنَّها لا تكاد تتناهى؛ ففي آحادها تناسبٌ لِقناعات آحادِ النّاس إنْ لم تكن كلُّها مقنعةً لِكلّهم، وكلٌّ يَقْبِسُ مِن أنوارها بقدر إيمانه إنْ كان قابلًا للإيمان، فكان يتوجّب على المرسَل إليهم التّصديقُ بها، لا مناهضتُها ومحاولة تشويهها؛ لذا كان الجدال فيها حقيقًا بالتَّعجُّب، وكان صاحبه حقيقًا بالتَّأديب.

فائدةُ إضافةِ الآيات إلى الاسم الجليل:

عظمةُ الآياتِ من عظمة المضافة إليه

التَّعبير بالآيات وحده كافٍ في الدّلالة على عظمتها وأنَّها مُبْهِرَة، وأنَّها من الغرابة والعَجب بما يَضْمن لها التّأثيرَ في النّفوس، ومع ذلك دَعَم النّظمُ الكريم تلك الدّلالاتِ العظيمةَ بإضافة الآيات إلى اسم الله تعالى؛ فأضفَى عليها عظمةً إلى عظمتها، وقوَّةَ تأثيرٍ إلى قوَّتها، وزادَها عظمةً وألَقًا، ومنحَها تَميُّزًا عمّا ألِفَهُ المجادلون فيها، وأنَّها ﴿ءَايَٰتِ﴾ تليق بجلال الله ﷻ، فنبَّه "على ما في هذه الآيات من عظمته الَّتي لا نهايةَ لها بإعادة الاسم الجامع فقال: ﴿فِي ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المَلِكِ الأعظم"[1].

بلاغةُ الاستفهام في استعمالِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

انصرافُ المشركين عن الحقِّ إلى الباطل حالٌ عجيب ومسلكٌ غريب

تَحتمِلُ أداةُ الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ معنى (كيف)؛ أي: كيف يُصرَفون عن دين الله الحقِّ إلى الباطل؟[2] وكيف تُصرَفُ عقولُهم عن الهدى إلى الضّلال؟[3].

وتَحتمِلُ أن تكون بمعنى (أين)؛ أي: ألا تَعجَبُ من أين يَصرِفُهم صارفٌ عن الإيمان حتّى جادلوا في آيات الله؟ مع أنَّ شُبَهَ انصرافِهم عن الإيمان مُنتفيةٌ بما تكرّر من دلائل الآفاق وأنفسِهم، وبما شاهدوا

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.
(2) الواحدي، التّفسير الوسيط: 4/ 21.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.

من عاقبة الَّذين جادلوا في آيات الله ممّن سبقهم، وهذا كما يقول المتعجِّب من فعل أحدٍ: "أين يذهب بك؟"[1]، والصّارف على الوجهين هو أنفسُهم، فهي الَّتي أورَدَتهم المهالِكَ، ومعنى التَّعجُّب حاضرٌ في الاحتمالين، ولا مانع من اجتماع الدّلالتينِ الحاليَّةِ والمكانيَّة.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ الصَّرْفِ:

استعمل النّظم الكريم مفردة الصَّرْف في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾، ومعناه التّحوُّل والرُّجوع عن الوجهة المُثْلَى إلى غيرها، وهو في الكلام "تزيينُه والزّيادة فيه، وإنما سُمّيَ بذلك لأنّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه. ويُقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صُروف، وسمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم"[2].

الانـصـرافُ عن الحقِّ من حيث يـجـبُ الإقـبـالُ عليه هو موضعُ التّعجُّب

فانتقاءُ مفردة الصّرف في هذا السّياق باعتبار موضع العجب من حالِهم، والصّرف إنّما يكون في صرفِ الأسماع إلى الاستماع إلى الجيّد من الأقوالِ، وهؤلاء المشركون قد عكسوا الأمر فانصرفوا عن الحقِّ من حيث يجب أن يُقبلوا عليه؛ فوقعوا في التّعكيس، وهنا موضع التّعجُّب، فكان لفظ الصّرف رافدًا لمعنى التّعجُّب.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يُصْرَفُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

العَقْلُ السّديدُ لا يَـصـرِفُ أصحابَ العقولِ عـن الانـقـيـاد للحقِّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل ﴿يُصْرَفُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ لتصوير حال التَّعجُّب أثناء انصرافِهم عن الحقِّ، فهو لاستحضارِ جريمة الجدال في الحقِّ، وفضحِ خَزايَة أهل الباطل.

وجاء الفعل مبنيًّا للمفعول، وذلك لتسليط الضّوء على الفعل بقطع النّظر عن فاعله، والصّرف لا يكون إلّا من أنفسِهم، وموضعُ الأنفُسِ من الغَوايةِ معلومٌ معهود، ولذلك كان إظهارُ شناعة الفعل بالبناءِ للمفعول هو الأولى في سياق التّعجُّب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).

نكتةُ حذفِ متعلّق فعلِ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾:

الانـصـرافُ عن آيـات الله إنَّما هو فعلُ الباطلِ لا ضعفُ الحقِّ

حُذِفَ متعلّق فعل ﴿يُصۡرَفُونَ﴾؛ إذ لم ينصَّ النّظم الكريم على مصروفٍ عنه معيَّنٍ وإنْ كان معروفًا بتوجيه السّياق، وأنَّهم لا شكَّ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ "عن الآياتِ الحقَّةِ الواضحة الَّتي سَبَقَتْ بالفطرة الأولى إلى جذور قلوبهم، فلا حُجَّة يوردون، ولا عذابَ عن أنفسهم يَردّون"[1]، فحَذْفُ المتعلّقِ إنَّما هو لتسليط الضّوء على الفعل، وتنزيهِ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى عن أن يُصرَف عنها مصروفٌ؛ إيحاءً بقوَّةِ سلطانها، وأنَّها أخّاذة للعقول السّليمة، آسِرَةٌ للنُّفوس القويمة، والفِطَر المستقيمة، أمّا هؤلاء المجادلون فيها فمخذولون عنها، والعياذ بالله من شؤم الحال وسوء المآل.

براعةُ التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

المجادلُ في آياتِ الله الكونيَّة، مكذِّبٌ في آياتِ الله القرآنيَّة

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: هم الَّذين كذَّبوا بالكتاب، وجاء استعمال الاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ليقعَ مزيدٌ من ذمٍّ أولئك المجادلين، فهم المشركون الَّذين كذّبوا بالكتابِ، وهم معروفون معهودون، ولتسجيل علَّة الذّمِّ عليهم بما وقع منهم من التّكذيبِ بالكتاب مع وضوح براهينه وحُجَجه، فهو استشهادٌ عليهم بما في حيّز الصِّلة، فالذّمُّ لَحِقَهم حين الجدال، ثمَّ لَحِقَهم حين التّكذيب، فالاسمُ الموصول يُعيِّن أنّ الجدال في آيات الله ينتهي إلى التّكذيب بالكتاب، فمَن جادَلَ في آيات الله الكونيّة كذَّب في آيات الله القرآنيّة.

براعةُ الانتقالِ من ذِكر الجدالِ إلى ذكرِ التَّكذيب:

جاءَ ذكر التّكذيب في جملة الصّلة ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعد ذكر الجدال؛ لتقريرِ أنَّ جدالهم قادِهم إلى التّكذيب بالكتابِ، وإنَّما كان

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.

ذكرُ آيات الله لتكون مقدِّمةً موصلة إلى الإيمانِ بالقرآن، والقوم إنّما جادلوا بآيات الله كي ينصرفوا عن الحقِّ، وما كان منهم إلّا أن كذّبوا بالقرآن، فهم جادلوا في المقدمات الموصلة إلى الحقِّ، وهي مقدّمات قطعيّة لأصحاب العقولِ السّويّة، فكذّبوا في الكتاب الدّالِّ على الحقِّ، وهو كتابٌ قطعيٌّ لأصحاب القلوب النّقيّة.

الجدالُ في المقدِّماتِ القطعيَّةِ سببُ التّكذيب في الكتاب القطعيّ

نوعُ الباء ودلالتُها:

جاءت (الباء) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتّأكيد والمبالغة في التّكذيب، وضَمَّنتِ (الباءُ) فِعلَ التّكذيب معنى فعل الكفر؛ أي: كفروا بالكتاب جملةً، وبكونه كلامَ الله تعالى أصلًا، وتحتمل (الباء) أن تكون سببيَّةً؛ أي: كذَّبوا "بسببه في جميع ما له من الشُّؤون الَّتي تُفَوِّتُ الحصرَ والعظمةَ في كلِّ أمرٍ كان"[1].

المكذِّبون بالكتابِ كافرون بِنُزوله، معاندون لمضمونه

معنى تعريفِ لفظِ (الكتاب):

تعريفُ لفظ (الكتاب) للعهد الذّهنيِّ، فالمقصودُ بالكتاب القرآنُ الكريم، وتَحتَمِلُ أن تكون جنسيَّةً، والمعنى: أنَّهم كذّبوا بـ "بجنس الكتب السّماويَّة"[2]؛ وذلك أنَّ من كذَّب بالقرآن الكريم في حُكْم مَن كذَّب بجميع الكتب السّماويَّة؛ فكلُّها تدعو إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، وإن اختلفت فيما بينها في بعض التّشريعات الحياتيّة، وهي دالّة على معنى الكمال؛ "فلكماله كأنَّه لا كتابَ غيرُه؛ لأنَّ مَن سمِعَهُ فكأنَّما سمعه من النَّبيّ ﷺ لإعجازه، فمَن كذَّبَ بِحَرْفٍ منه فقد كذَّب بِكلِّ كُتُب الله ﷻ"[3].

القرآنُ الكريم أكملُ كتاب؛ فيُغني عمّا سِواهُ كأنَّه لا كتابَ غيرُه

دلالةُ واو العطفِ:

حرفُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَآ﴾ للعطفِ، فهو لتعديدِ جرائمهم، وتقبيحِ جدالهم وتكذيبهم الحقَّ؛ إذ لم يكتفوا

التّكذيب بالقرآن تكذيبٌ لسائرِ الرّسالات

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 63.
(3) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 113.

بالتَّكذيب بالكتاب، بل كفروا ضاربين إلى أعماق التّاريخ تكذيبًا لِجميع الرِّسالات السّماويَّة، وفي ذلك كناية عن احتمالِهمُ الإثمَ العظيم، واستحقاقِهمُ العقوبةَ الشّديدة. ويجوز أن يكون من عطف المُرادف، وفائدته التّوكيد[1]؛ أي: الَّذي أرسله الله تعالى هو القرآن الكريم، والأولى إيقاعُ دلالة التّغاير بين المتعاطفين.

علَّةُ التَّعبير بالموصول (ما):

التَّكذيبُ بالسُّنَّةِ داخلٌ في مضمونِ ما أُرسِلَ به المرسَلون

آثر النّظم الكريم استعمالَ الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ دون الذّي؛ ليعمَّ جميعَ ما أُرسِلَ به المرسَلون، فيشملُ التّكذيبُ التّوحيدَ والأمرَ والنَّهيَ[2]، والهدى والبيانَ[3]، والبعثَ، فلمّا جاءهم النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ بإثباتِ البعث سألوا عنه أهلَ الكتاب فأثبتوه؛ فأنكَر المشركون جميعَ الشّرائع لذلك[4]، ولِزيادة التّشنيع على هؤلاء المكذِّبين لم يقل: الَّذين كذَّبوا بالكتاب وبالكتب السّابقة، فذكرُ الرُّسل يَلفت إلى أنَّ تكذيب الرِّسالات هو تكذيبٌ للرُّسل.

ومن مزايا الموصول هنا إفساح الدّلالة لـ"جميع ما يوحَى إلى الرُّسل مِن غير كتابٍ إنْ كانت اللّام في الكتاب للجنس، أو سائرِ الكتب إنْ كان المرادُ بالكتاب القرآنَ"[5]، وإنَّ "مما جاء به الرَّسول ﷺ مواعظَ وإرشادًا كثيرًا ليس من القرآن"[6]، فتدخلُ السُّنّة في مضمون ما أُرسِلَ به المرسَلون، وقد ورد عن الرَّسول ﷺ أنه قال: «ألا إنّي أوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ، ألا إنّي أوتيتُ القُرْآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ»[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 213.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 574.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(7) أحمد، مسند أحمد، مسند الشّاميين، حديث المقدام بن معدي كرب: 28/ 410، برقم: (17174).

نوعُ الباء ومعناها:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مثلُ الباء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ في دلالتهما على الرّجوع إلى التّكذيب، والكفرِ بأصل إنزال الكتب والشَّرائع.

تكذيبُ خاتَمِ الأنبياء وغيرِهِ مِن الرُّسُلِ سواء

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الإرسال دون البعث:

استعمل النّظم الكريم مفردةَ الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾، وذلك أنَّ الإرسالَ يقتضي حملَ الرَّسول رسالةً وما يَجري مَجراها[1]، وموضعُ الذّمِّ في كونهم كذَّبوا الرُّسلَ والرِّسالات، وللإلماحِ إلى تكذيب المرسِلِ ﷻ دون التّصريح به، فإنَّه يلزم عن وجود الإرسال وجودُ المُرسِل، فالتَّعبير بالإرسال دون البعث أشدُّ تشنيعًا عليهم.

لفظُ الإرسالِ يومِئُ إلى المُرسِلِ، وهذا أشدُّ في الإنكارِ على المُكذِّبين

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإرسال:

أُسند فعلُ الإرسالِ لنون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾؛ لتشريفِ أمر الرّسالة، وأنَّ شأنَها عظيمٌ عند الله تعالى، وبناءً عليه فتكذيبُ الرُّسل والرِّسالات مقامٌ خطيرٌ يقتضي التّهويل والتَّفظيع؛ وذلك لِعظيم شأن الكتاب العزيز، وعظيم شأن الرُّسُل الكرام جميعًا؛ فكان إسنادُ فعل الإرسال أبرَّ بالمقام، وأملأَ للسّياق، وأشدَّ في تأكيد الوعيد الآتي بعدُ ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾.

تكذيبُ الرِّسالات شنيعٌ باعتبارِ أنَّ المُرسِلَ هو العظيمُ سبحانه

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول في جملةِ ﴿أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾؛ لِلَفْتِ الانتباه إلى أهمّيَّة ما أُرسِل به الرُّسُلُ عليهم السلام، وتنويهٌ بشأنه، وتنبيهٌ إلى أنّ التّكذيب به من الجُرم بمكانٍ، ولأنَّ التّقديم

(1) العسكري، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 103.

واقعٌ في سياق الإنكار التّوبيخيّ للمكذِّبين؛ فهو عنصرُ استثارةٍ للعَجَبِ في نفوس مَن يَتلقَّى هذا الخطابَ الإلهيَّ مِمَّن يَفقه بلاغة اللِّسان؛ فكيف يتأتَّى لأحدٍ أن يُكذِّب (بِما أرسلنا به رسلنا)؟! إنّ هذا عجيبٌ مستنكرٌ باعتبار أنَّ المرسِل هو الله ﷻ، وباعتبار المرسَلين عليهم السلام، وباعتبار ما أُرسِلَ به من الكتب السّماويَّة.

تنبيهُ المخاطَبين إلى عظيمِ شأنِ تكذيبِ الرِّسالات

نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿رُسُلَنَا﴾:

لفظ ﴿رُسُلَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ جاءَ بصيغةِ الجمع؛ فيدخل جميعُ الرُّسلِ الَّذين أرسلهم الله تعالى، وذلك العمومُ أنسبُ وأبرُّ بمقام تفظيع التّكذيب ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عليهم السلام، ويحتمل أن يكون المراد بـ ﴿رُسُلَنَا﴾ محمَّدًا ﷺ، وذلك كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105]؛ يعني: الرَّسولَ نوحًا عليه السلام[1]، فيكون إطلاقُ الجمعِ وإرادةُ المفرد مجازًا أُريد به التّفخيمُ، والأوَّل أولى بالقبول.

آحاد الرُّسل الكرام في مقامِ جميعهم عليهم السلام

نكتةُ إضافة الرُّسُلِ إلى ضميرِ العظمة:

في إضافةِ لفظ الرُّسل إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مزيدُ تجريمٍ لهؤلاء المكذِّبين بآيات الله؛ فتكذيبُ الرُّسل بدون إضافةٍ جُرمٌ عظيمٌ، ويزدادُ التّشنيع عليه في إضافة الرّسل إلى العظيم سبحانه؛ لأنَّه يرفعَ رتبةَ شرفِهم، ويمنحُهم مِن الحصانة ويُضفي عليهم مِن الهيبةِ ما يوجب لهم التّوقيرَ، ولرسالاتهم التّصديقَ، لا التّكذيبَ والكفر، وهكذا يظفرُ كلُّ مَن يتَّصِلُ بربِّه تعالى برفيع الشّرف، ويستمدُّ من إيمانه متينَ الحصانة.

اتصالُ العبدِ بربِّه سبحانه يرفعُ رُتبتَه ويمنحُه الشَّرف

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾:

حرفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعليل؛ أي: إنَّهم سوف يُعاقَبون عقابًا شديدًا بسبب تكذيبهم ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.

أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾، وإنَّ هذا العقابَ المفهوم من هذا التّهديد في جملة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مترتِّبٌ على ذلك التّكذيب، ومسبَّبٌ عنه، ومَنوطٌ به؛ فلا ظُلم فيه، وإنَّهم بتذوُّقِهِ ومعاناته لَحَقيقون. وتَحتمِلُ (الفاء) أن تكون تفريعيَّةً؛ حيث "تفرع على تكذيبهم وعيدَهم بما سيلقونه يوم القيامة، فقيل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوف يجدون العذابَ الَّذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه"[1]، والتّفريع والتّعليل يلتقيان في عمومِ الدّلالة.

تعليلُ الوعيدِ متفرِّعٌ عن التّكذيب، والتّكذيبُ علّةُ الوعيدِ وسببُه

دلالةُ استعمال (سوف):

استعمل النّظم الكريم حرف التّسويف في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ لتهديدِ هؤلاء المكذّبين للرِّسالات الإلهيَّة، فإنَّ الوعيدَ - وإن طال في نظرِهم - لاحِقُهم، وهو في انتظارهم، فهو إرخاءٌ للعنانِ الجامعِ لشديد الوعيد، فإنَّ ظنونَ المكذِّبين كثيرةٌ، ومنها إنكار العذاب واستبعاد وقوعه، فأجرى القرآن الكلامَ على ما يظنّون في بعدِه، لكنَّه أتى بما يدلُّ على قطعيَّةِ وقوعه، وهذا من الإرخاء المخيف، بحرف التّسويف.

الإرخاء المخيف بحرف التّسويف

بلاغةُ الكناية في استعمال لفظِ العلم:

استعمل النّظم الكريم لفظَ العِلْم في جملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ كنايةً عن الوعيد والوقوع في العذاب؛ أي: فسوف يعلمون الحقَّ حين يلاقون أهوال العذاب في الآخرة، فلا يُقصد به مجرَّدُ العلم؛ إذ لا يكون مجرَّدُ العلم عقوبةً حتى يُصطَلَى بمعلوم، وآثر النّظم هذا الاستعمالَ الكنائيَّ دون الصّريح - كأن يُقال: فسوف يُعاقبون - لمزيدِ تخويفٍ من ذلك المعلوم المجهول؛ وإيحاءً بأنّ التّهديد بمجرّد العِلم بالعقوبة أمرٌ؛ فما ظنُّهم بمُقاساتِها فعلًا؟ لا شكَّ أنَّها ستكون أنكى وأشدَّ.

التَّهكُّمُ بالمكذِّبين بوقوع العلم الَّذي لا تكذيبَ به ولا جدالَ فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.

نكتةُ حذفِ معمولِ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

طيُّ المفعول في مقام التَّرهيب يزيدُهُ ترهيبًا

ممّا يزيدُ وعيد المكذِّبين ترهيبًا طَيُّ مفعول فعلِ العِلم من قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، فلم يقل مثلًا: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، فحُذِفَ المفعولُ لزيادة التّرهيب منه؛ إذ بحذفه يذهب الذِّهنُ في تقديره وتصوُّر خطورته مذاهبَهُ الَّتي يصوِّرها له هذا التّهديد، ممّا قد يكون له الأثرُ في رجوعِهم إلى الحقِّ، والتَّوبةِ من الكفر.

براعةُ الاستعارةِ في استعمال الظَّرف ﴿إِذِ﴾:

إخبارُ القرآنِ عمّا سيكونُ كمشاهدةِ العيان لِما كان

استعمل النّظم الكريم الأداة ﴿إِذِ﴾، وهي ظرفٌ للزَّمن الماضي كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾ [البقرة: 131]، وقوله: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 133]، ولمّا كانت ﴿إِذِ﴾ كذلك، وكان قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ حديثًا عن المستقبل وهو يوم القيامة دلَّ استعمالها على معاملة الإخبار عمّا سيكون يوم القيامة من حسابِ المكذِّبين معاملةَ ما كان في الماضي ووقع وتحقَّق، فهي "استعارة تبعيَّة للزَّمن المستقبل المحقَّقِ الوقوعِ تشبيهًا بالزَّمن الماضي"[1]؛ وذلك لتصوير مشهد المستقبل بخبر الماضي كنايةً عن تحقُّقه، وأنّه أمر واقع حتمًا، وإخبارُ القرآنِ بما سيكون في المستقبل كإخبار الصّادق مِن البشر بما كان في الماضي.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾:

الأغلالُ يومَ القيامةِ ذاتُ نوعٍ مَخصوص، وذاتُ عذابٍ مَرْصوص

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ "جمع غُلٍّ بضمِّ العين، وهو حَلْقةٌ من قِدٍّ أو حديدٍ تُحيط بالعنق، تناط بها سلسلةٌ من حديد، أو سَيْرٌ من قِدٍّ يُمسَكُ بها المجرم والأسير"[2]، "وأصلُه الإدخال، يُدخَلُ فيه العنقُ واليدُ فيجمعان به"[3]، والأغلال معلومةٌ لدى النّاس في الدّنيا، لكنّها في الآخرةِ ذاتُ نوعٍ مختلف، وعلى التّحقيق لا يعلم حقيقتَها إلّا اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(3) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114 بتصرُّف.

تعالى، فيكون التّعريف للنّوعِ، وهي النّوع الكامل في وصف الغُلّ، البالغة في الخطورة مبلغًا لا يُزاد عليه ثِقَلًا، وإحكامًا، وإطباقًا، والتهابًا، وما إلى ذلك من أعباءٍ مُهلِكةٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرف الظّرفيّة:

تصويرُ قوّةِ الإحاطةِ وشديدِ الالتباس

الأعناقُ هي الّتي توضع في الأغلالِ، وقد جاء التّركيب على طريقِ القلب، فقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، ونكتةُ ذلك بيانُ شدّة تلبُّس الأغلال بالأعناق، بحيث إذا رآهم أحدٌ من بعيدٍ أيقَنَ أنَّه لشدّة التِصاقِ الأغلال بالأعناقِ فهي فيها، والأغلالُ إنّما أحاطت بالأعناق، فأصبحت فيها، ولمّا كانت الأغلال والأعناق جمعًا ناسَبَ ذكرُ الظّرفيّة.

نكتةُ التّصريح بالقيد:

تقييدُ الأعناقِ في الآخرةِ إذلالٌ معنويٌّ للكفّار وإرهاقٌ حسّيٌّ

الأغلالُ تكونُ في الأعناق عادةً، وقد جاء التّصريحُ بذلك ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ لإظهارِ الإذلال والإهانة لأولئك المجادلين، ولبيان انقلاب الحال، فبعد أن كانوا في الدُّنيا رافعي أعناقِهم يَلْوونها عن الحقِّ صاروا في الآخرة مجرورين من أعناقهم، وهذا في غايةِ الإذلال؛ إذ البهائم والكلاب هي الّتي تُجَرُّ وتُسحَب مِن أعناقها، فإذا سُحب الإنسانُ من عنقه بغُلٍّ وسِلسلةٍ كان في نهاية الذّل والحقارة، وفي القيد - إضافةً إلى العذابِ المعنويِّ الحاصل بذُلِّ جَرِّهم مِنه - عذابٌ حسّيٌّ فاتكٌ؛ حيثُ يُقاسي الكافرُ المجادل حرارةَ الغُلّ والتهابَهُ، وثِقَلَ وزنه بما لا يمكن تصوُّرُه، وليستِ الأعناق من مخافةِ الهروب، بل لتحقيقِ العذاب، كما "قال الحسن بن أبي الحسن: لم تُجْعَلِ السّلاسلُ في أعناق أهل النّار؛ لأنَّهم أعجزوا الرَّبَّ هَرَبًا؛ لكن لِتُرْسِبَهم إذا أطفاهم اللهبُ إلى الأعلى"[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 569.

نوعُ الواو ودلالتُها الرّابطة:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عاطفةٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، و﴿فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ في نيَّةِ التّأخيرِ، وقيل: مبتدأٌ حُذف خبرُه لدلالةِ خبر الأوّل عليه[1]، والتّقدير: إذ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقهم، و﴿يُسْحَبُونَ﴾ حالٌ؛ أي: إذ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقهم مسحوبين بهما في الحميم، وذلك يُبيِّن صعوبةَ ما يُقاسيه المجادلون المكذِّبون في الآخرة من صنوف العذاب المُذلّ الأليم، فالمعنى: أنَّ (السَّلاسِلَ) "متَّصلةٌ بالأغلالِ بأيدي الزّبانيَةِ يسحبونهم على وجوههم، تارةً إلى الحميم وتارةً إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: 43 - 44]"[2].

سحبُ المكذِّبين بالسَّلاسلِ المتَّصلة بالأغلالِ وهي في أعناقهم

معنى تعريفِ لفظِ (السَّلاسِلِ):

(السَّلاسِلُ) "جمعُ سِلْسِلةٍ بكسر السّينين، وهي مجموعُ حِلَقٍ غليظةٍ من حديدٍ متَّصلٍ بعضُها ببعضٍ"[3]، و"السِّلسلة مِن: تَسَلْسَلَ الشّيء؛ أي: اضطرب، قال الرّاغب: كأنَّه تُصوِّرَ منه تَسَلسُلٌ مُتردِّدٌ، فردَّدَ لفظَهُ تنبيهًا على تردُّد معناه، وما سُلسِل متردِّدٌ في مقرِّه حتّى صفا"[4]، والسَّلاسِلُ معهودةٌ في الدّنيا، لكنّها في الآخرةِ ذات نوع مختلف، وهي على التّحقيق لا يَعلم حقيقتَها إلّا اللّه تعالى، فيكون التّعريف للنّوعِ، وهي النّوع الكامل في وصف السّلاسل.

سلاسلُ العذابِ يُعرَفُ منها الوجهُ الرّهيبُ في أثره الكامن في حقيقته

غرضُ جمع (السَّلاسِلِ):

جاءتِ (السَّلاسِلُ) بصيغةِ الجمعِ للدَّلالة على كثرتها وتنوُّعها، في شدّتها، وطولها، وثقلها، وحرّها، ممّا لا قِبَل لأحدٍ باحتمالِهِ وشدَّةِ سخونته، والعياذ باللّه تعالى من حال أهل النّار.

التَّنوُّعُ المُنبِئُ عن عظيمِ عذابِ الله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 284.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(4) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

السَّحبُ للبهائمِ، فإذا انحطَّ الإنسانُ عن رُتْبتِها استحقَّ دونَ معاملتها

جاء استعمالُ مفردةِ السّحب في جملة ﴿يُسْحَبُونَ﴾ لتصويرِ مَظهرِ الهَوانِ الَّذي يكون فيه المكذِّبون بالرِّسالات والرُّسل يوم القيامة، "والسَّحبُ: الجَرُّ بِعُنْفٍ"[1]، "وهو يَجمَعُ بين الإيلامِ والإهانةِ"[2]، والَّذي يُسحَبُ ويُجرُّ في الدُّنيا هو الحيوان، فعومِلَ المكذِّبون في الآخرة معاملةَ الحيوان في الدّنيا؛ لأنّه دونه في مسلكِ العبادة والتَّسبيح، فهم أضلُّ من الأنعام، فكان إذلالُهم في الآخرة مناسبًا لحالهم، فالمجادلةُ في آيات اللّه تعالى لدحضها - ودَحْضُها مُحالٌ - تستَوْجبُ الإهانة والإذلال، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحجّ: 18].

وصَوْغُ الفعل ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مضارعًا يُفيد تجديد السّحب، كما أنه يَستحضِرُ صورتَهُ، ويُقيمُها أمامَ النّواظر كأنَّها مشهدٌ حيٌّ يُبصَر، تهديدًا وزجرًا عن مُقارَفةِ أسبابه واستيجابه.

لطيفةُ بناءِ فعل ﴿يُسْحَبُونَ﴾ للمفعول:

لا يَستحِقُّ المكذِّبون كرامةَ ذكرِ الملائكة

جاء فعلُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، مع أنَّه من المعلوم أنَّ ملائكة العذاب هم الَّذين يَسحبون المكذِّبين بآيات اللّه تعالى في الحميم يوم القيامة؛ لِما في ذلك من إهانةٍ تُضاف إلى إهانة السَّحب أصلًا؛ ذلك أنَّ البناء للمفعول يوحي بأنَّهم دون أن يُذكر فاعلُ سحبِهم؛ كي لا يأخذوا من كرامةِ ذكرِه كرامةً.

فائدةُ حرفِ الظّرفيّة:

المجادلون المكذِّبون يُغَطّون في الحميم، ويُغرَقون فيه إغراقًا

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَمِيمِ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾؛ أي: يسحبون بالأغلال الَّتي في أعناقهم في الحميم، والحميمُ هو ما

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

يُغلَى مِن السّوائلِ[1]. وأفاد حرفُ الظّرفيّة أنّهم يُسحبون في الحميم، والعذابُ يحيط بهم من كلّ جانب؛ فلا تخفيفَ عنهم، ولا مهربَ لهم.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾:

السّائلُ الّذي يَغلي في النّار ممّا لا وقوفَ لأحدٍ على مثله

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ للمعهودِ من وصف السّائل البالغ حَرُّه الدّرجةَ القُصوى، وهو الّذي لا يُطاق، ولا يتحمَّله أحد، وهو معهودٌ ممّا جاء ذكره في القرآن الكريم عن سوائلِ النّار الّتي تغلي، وهو "المسخَّنُ بنارِ جهنَّمَ"[2]، فـ "يُشرَب منه وقد انتهى حَرُّه غايتَه"[3].

نوعُ التّراخي ودلالتُه في قوله: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾:

عذابُ المكذِّبين دَرَكاتُهُ شديدةٌ ومراحلُهُ أليمة

تدلُّ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ على التّراخي الزَّمنيِّ والرُّتبي معًا، فالتَّراخي الزَّمنيُّ مستفادٌ من التَّصريح بأنَّ العذاب هنالك لهؤلاء المجادلين المكذِّبين تعذيبٌ بالماء المغليِّ البالغ في وصف ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ ما لا مزيدَ عليه، وتعذيبٌ بالنّار، فـ﴿ثُمَّ﴾ قائلةٌ بتطاوُلِ أحقاب العذاب عليهم.

وأمّا التّراخي الرُّتبيُّ فمستفادٌ من أنَّ درجة العذاب بالنّار أشدُّ إيلامًا من درجة الحميم، وإن كان كلاهما شديدًا؛ فـ"لمّا أخبر عن تعذيبهم بالماء الحارِّ الّذي من شأنه أن يُضَيِّق الأنفاسَ، ويُضعِف القوَى، ويُخفق القلوب أخبر بما هو فوق ذلك فقال: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: عذابها خاصَّةً ﴿يُسۡجَرُونَ﴾"[4].

و"شأن ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَطَفت الجملَ أن تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ وذلك أنَّ احتراقَهم بالنّار أشدُّ في تعذيبهم من سَحْبِهم على النّار، فهو ارتقاءٌ في وصف التّعذيب الّذي أُجمِل بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّجرُ بالنّار حاصلٌ عقب السّحب، سواءٌ كان بتراخٍ أم بدونه"[5].

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1268.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 51.
(4) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

دلالةُ حرفِ الظّرفيّة:

أوديـــةُ الـنّـار عميقةٌ يُغرَقُ فيها المكذِّبون، وهـــي لـهـم كـالـظَّـرف للمظروف

دلَّ حرفُ الظّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ على أنّ المرحلة التّالية لسحب المكذِّبين هي السّجر في النّار؛ فأوديةُ النّارِ عميقةٌ، والمكذِّبون يُغرقون فيها بحيث تلفُّهم لفًّا، وتكون لهم ظرفًا تشتملُ عليهم، فمعنى ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: أنّها "محيطة بهم، وهم مسجورون بالنّار، مملوءة بها أجوافهم"[1].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

أخبارُ نارِ الآخرة في الـوَحْـيَـيـنِ الـشَّـريـفـيـنِ مـعـهـودةٌ، وأوديَتُها عديدةٌ معروفة

تعريفُ لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ للعهد، وهي الَّتي تواردت أخبارها وأوصافها في الوحيين الشّريفين، وعُرِفت بتنوُّع أوديتها وصنوف عذابها، فإذا جاء ذكرها في القرآن الكريم بادرت الأذهان إلى استحضارها وتصوُّرها، و(أل) تزيد ﴿ٱلنَّارِ﴾ خطورةً، وتوحي بأنَّها ﴿ٱلنَّارِ﴾ التّامَّةُ النّاريَّةِ، الَّتي جاء وصفُها: "عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: أوقِدَ عَلَى النّارِ ألفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فهيَ سَوْداءُ مُظْلِمَةٌ"[2]، فهي تلك ﴿ٱلنَّارِ﴾ الجديرة بالتَّعريف.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة على الفعل:

إقامةُ اليأسِ في القلوبِ وشديدِ الـبـأس عـلـى الأبدان

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ على متعلَّقه ﴿يُسْجَرُونَ﴾ لإفادة القصر؛ إذ لا مكان لهم ولا مستقرَّ إلّا في جوف ﴿ٱلنَّارِ﴾، ولا فِكاكَ لهم من عذابها أينما قُلِّبوا وتَقَلَّبوا، ونكتةُ التّقديم إقامةُ معنى اليأس، والمناداةُ على البأس والبؤس لأهل النّار.

موقعُ جملةِ ﴿يُسْجَرُونَ﴾ في التّركيب:

جملةُ ﴿يُسْجَرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿يُسْحَبُونَ﴾، فيكونُ ترتيب الجملة قبل ذلك التّصرُّف المعبِّر: يسحبون في الحميم ثمَّ يسجرون

(1) النسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 221.

(2) التّرمذي، سنن التّرمذي، أَبْوابُ صِفَةِ جَهَنَّمَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، باب منه: 4/ 291 برقم: (2591).

في النّار، فيُغَلّون في الأغلال والقيود، الّتي توصَل بها السّلاسل، فيسحبون في الماء المغليِّ غايةَ الغَلَيانِ، ثمَّ يَستقِرّون في أعماق النّار. و"المرادُ أنَّهم يُعذَّبون بأنواعٍ من العذاب ويُنقَلون من بعضها إلى بعضٍ"[1]، فهم "يُعذَّبون مرَّةً بهذا ومرَّةً بهذا، وقيل: يُعذَّبون بالماء، وقيل: يُعذَّبون بالماءِ الحارِّ ثُمَّ يُحرقون بالنّار"[2]، والمعنى: أنّهم ينتقلون بين أنواع العذابِ سحبًا وسجرًا، كلّما انتهى وقتُ مرحلةٍ بدأتْ أُخرى، كما أفاده حرفُ التّراخي.

المكذِّبون يُعَذَّبون بأنواعِ العذاب ويُنقَلون من بعضِها إلى بعضٍ

دلالةُ استعمالِ مفردة السَّجْر:

تدلُّ مادَّةُ السّجر على الاشتعال والتأجُّج، وإيقاد النّيران في أجسام المكذِّبين ممّا لا يطيقه مجرَّدُ التّخيُّل، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: 24]، فهؤلاء المكذِّبون يصيرون بشحومهم ولحومهم مادَّةَ الإشعالِ والتَّأجيجِ ووقودَ ﴿ٱلنَّارِ﴾، وبِذِكْر ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ يكون النّظم الكريم قد "ذَكر ما يُسقَون فيها - وهو الحميم - وذَكر ما يُحرقون به؛ يقال: سُجِرَتْ؛ أي: أوقِدَتْ فيه"[3]، فهم "يُطرَحون فيها فيكونون وقودًا لها"[4]. وبه يتبيّن أنّهم يُحمَّون في الحميمِ قبلَ الإلقاء في النّار لتأجيجها وإشعالها، وقد جمَعَ لفظُ السَّجْرِ بين كونهم يُحرقون في النّار، وبين كونهم وقودًا لها.

المكذِّبون يصيرون يومَ القيامة وقودَ اشتعالِ النّيران ومادَّةَ تأجيجها

دلالةُ صيغة المضارع:

في صَوْغِ الفعل ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على تجدُّد إيقادِ النّيران بأجسام المجادلين، المكذِّبين بالكتاب وبما جاء به الرُّسل الكرام، وتقرِّر تطاوُلَه وتنوُّعَه وتصاعُدَه إلى غير غايةٍ أو نهايةٍ؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: 162]. وتدلُّ صيغةُ

إيقادُ النّيران في المجادلين المكذِّبين يَتجدَّدُ بلا انقطاعٍ ولا توقُّف

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 63.
(2) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2629.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 51.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 333.

المضارعة على الاستقبال واستحضار صورته، وتُقيمُها في الخيال كأنّها مُبصَرةٌ الآنَ وفي كلِّ آنٍ تُقرأ فيه الآيةُ الكريمة؛ فعطاءُ المضارَعةِ فاعِلٌ في مقام التّهديد والوعيد والزَّجر، كما أنّه مصوِّرٌ بطبعه تصعُّدَ السَّجْر فيهم.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ:

سَجْرُ النّارِ يَعُمُّ المكانَ والحالّينَ فيه

في إسناد فعل ﴿يُسْجَرُونَ﴾ إلى الضّمير دون المكان "إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ الَّذي يُسجَر هو مكانُهم من جهنَّمَ، فأُريدَ بإسناد المسجور إليهم المبالغةُ في تعلُّق السّجر بهم، أو هو استعارةٌ تبعيَّةٌ بتشبيههم بالتَّنّور في استقرارِ النّار بباطنهم، كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحجّ: 20]"[1]. وحَمْلُ السَّجْرِ على المكان ابتداءً، وعليهم عند سَحْبِهم إلى النّار ليكونوا وقودَها هو الأولى بظاهرِ النّظم، والأولى بدلالةِ العموم.

لطيفةُ بناءِ فعل ﴿يُسْجَرُونَ﴾ للمفعول:

تهويلُ مصيرِهم وتلوينُ أنواعِ عذابِهم

في بناءِ الفعل ﴿يُسْجَرُونَ﴾ للمفعول - مع العلم بأنَّ فاعله خزنةُ جهنَّمَ والملائكةُ الموكَّلون بالتَّعذيب - إيحاءٌ بهولِ المصير وتكاثُرِ أسباب الهموم مِن كلِّ جانبٍ، وبُغْضِ عناصرِ الكون هنالك لهؤلاء المشؤومين، وما إلى ذلك ممّا يُفسِح له حذفُ الفاعل.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجِدالُ والحِجاجُ والمِراءُ:

الحِجاجُ لإظهارِ الحُجَّة، والجِدالُ للإرجاعِ عن المذهب، والمِراءُ مُخاصَمةٌ في الحقِّ

المطلوبُ بالحِجاج إظهارُ الحُجَّة، والمطلوبُ بالجدال الرّجوعُ عن المذهب، فإنَّ أصله من الجَدْل، وهو شِدَّة الفَتْل، ومنه الأجدلُ؛ لِشِدَّة قوَّته من بين الجوارح، ويؤيِّدُهُ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32]. هذا، وقد يراد بالجدال مطلق المخاصمة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] [النّساء: 109]. أمّا المِراءُ فمذمومٌ؛ لأنَّه مخاصمةٌ في الحقّ بعد ظهوره، وليس كذلك الجدال[2].

الصَّرْفُ والإفكُ:

الصّرف: الرّدّ والإرجاع، وصَرْفُ شيءٍ إلى شيء: رَجْعُهُ إليه، وصَرْفُ الكلام: تزيينه والزّيادة فيه، وإنَّما سُمّي بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه. ويقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صروف، وسُمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم[3]، والإفْكُ: الكَذِبُ، أفِكَ يَأفَكُ أفَكًا، ومنه قولُه ﷻ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذّاريات: 9]. والأفّاكُ: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ عن الحَقِّ بالباطِل والكَذِب. وقَوْلُه ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التّوبة: 30]، أي: يُحَدّوْنَ. والمَأفوكُ: المَحْدودُ عن الخَيْرِ. والأفْكُ: مَجْمَعُ الخَطْم، ومَجْمَعُ الفكَّيْن، ويُقال: أُفِكْتُ أنْ أفْعَلَ كَذا؛ أي: صُدِدْتُ عن أنْ أفْعَلَه[4]، فالإفكُ هو الكذبُ الَّذي يَصرِفُ النّاس عن الحقِّ، والصَّرفُ أعمُّ منه.

الإفكُ هو الكذبُ الصّارِفُ عن الحقِّ، والصَّرْفُ أعمُّ منه

التَّسجيرُ والتَّسعير:

السّجر من سَجَرْتُ التَّنّورَ أسْجُرُهُ سَجْرًا، إذا أحْمَيْتَه. والسَّجورُ: ما يُسْجَر به التَّنّورُ. والسّاجِرُ: الموضع الَّذي يأتي عليه السّيل فيملؤه[5]. والسَّجْرُ: تهييج النّار، يقال: سَجَرْتُ التَّنّورَ، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطّور: 6]، وقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التّكوير: 6] أي: أُضرِمَتْ[6].

التَّسعيرُ بدايةُ الإحماء، والتَّسجيرُ غاية الإلهاب

(1) معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 158.
(2) معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 159.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (إفك).
(5) الجوهري، الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية: (سجر).
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سجر).

أمّا السَّعْرُ فمن قولنا: سَعَرْتُ النّارَ والحربَ: هيَّجْتُهما وألهبْتُهما، وسَعَرْناهُمْ بالنَّبْلِ؛ أي: أحرقناهم وأمضَضْناهم. والمِسْعَرُ والمِسْعارُ: الخشبُ الَّذي تُسْعَرُ به النّار. ومنه قيل للرَّجل: إنَّه لمِسْعَرُ حربٍ؛ أي: تُحْمَى به الحربُ[1]، والمفردتان متقاربتا الدّلالة، لا سيَّما على قاعدةِ الاشتقاق الأكبر، إلّا أنّ دلالةَ السّجر أوضحُ في الامتلاء، وستمتلئُ بهم النّارُ، فهو امتلاءٌ بعد تسعيرٍ، فالتّسعيرُ ملحوظٌ فيه البدايةُ، أمّا السّجر فيكون غايةً مرادةً.

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية: (سعر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»